المبدىء المعيد

من أسماء الله الحُسنى المُبدىء المُعيد .

فضلاً عن أنَّ هذين الاسمين وردا في حديث رسول الله ﷺ حينما ذكر أسماء الله الحُسنى ، فإنَّ هذين الاسمين يُذكران معاً دائماً ، وقد نوَّهت من قبل إلى أنَّ العلماء في بعض الأسماء يرون أنها تذكر معاً ، كأن تقول : المعطي المانع ، القابض الباسط ، الخافض الرافع ، المُعزّ المُذل ، الضار النافع ، إنَّه يضُرُّ لينفع ، ويخفض ليرفع ، ويُذلُّ ليُعز ، ويقبض ليبسط ، ويمنع ليعطي .

وهذان الاسمان . . المبدي المعيد ألِف العلماء أيضاً أن يذكروهما معاً في بحثٍ واحد ، ولا بدَّ من أن أُنوِّه مرَّةً ثانية إلى أنَّ معرفة الله عزَّ وجلَّ تقتضي أن تعرف أسماءه الحسنى . . لذلك قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

والذي يدعوك إلى معرفة الله ، أو الذي يدعوك إلى محبَّته ، والانقياد لأمره أن تعرف أسماءه الحُسنى ، لأنَّ النفوس جبلت على حُبِّ الكمال ، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلَّها .

وسنتعرف أين ورد هذان الاسمان في القرآن الكريم ؟ وبالطبع فإنَّ

أسماء الله الحُسنى قد وردت في الكتاب والسنَّة ، لكن بعض الأسماء ورد بالنصِّ الدقيق ، وبعضها ورد بالجذرِ ، أي بالفعل ، كما مر بنا في البحث السابق ، فالله سبحانه وتعالى واجد . . لكنه ورد في القرآن الكريم : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص : ٤٤] .

فلم يرد في القرآن اسم الواجد لكن ورد فعل وجد ، من الوجود ، وقد ذكرت ماذا يعني كلمة الواجد . . أي الغني ، الواجد الذي يعلم ، الواجد الذي وجد عليه أي غضب منه ، وقد بيَّنت ما يتناسب مع أسماء الله الحُسنى من هذا المعنى .

يقول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٩] .

يقول بعض العلماء وهذا القول حق ورائع : « **الشريعة عدلٌ كلُّها ، رحمةٌ كلُّها ، مصلحةٌ كلُّها ، فأيَّة قضيَّةٍ خرجت من العدل إلى الجور ، من المصلحة إلى المفسدة ، من الرحمة إلى خلافها فليست من الشريعة ، ولو أُدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل** » .

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ . . . : بدأكم . . . تعودون ، المبدىء المعيد .

في هذه الآية وردت الإشارة إلى اسم الله المبدىء وإلى اسم الله المعيد ، وفي سورة الأنبياء قال تعالى :

﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وفي سورة النمل قال تعالى :

﴿ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [النمل : ٦٤] .

وفي سورة العنكبوت قال تعالى :

﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

وفي سورة الروم قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : ١١] .

وفي السورة نفسها قال تعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الروم : ٢٧] .

وفي سورة البروج قال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾ [البروج : ١٣] .

فالإنسان أحياناً يقول : والله قد فعلت هذا الأمر ولكنّي لا أستطيع أن أُعيده . أي جاءته معونةٌ خاصَّة خارجةٌ عنه ، فإذا كلفته أن يعيده لا يستطيع ، فالإنسان من ضعفه أحياناً تأتيه بوارق ، حالات استثنائيّة ، إشراقات ، فهو لا يملك هذا الإشراق دائماً ، فكل من يعمل في أعمال الفكر أو الإبداع ، يعرف أن الإبداع لا يأتيهم متى يشاؤون ، الإبداع قد يوافي الرجل ، وقد لا يوافيه ، فمعنى ذلك أنَّ الإنسان مفتقر ، أحياناً يبدع في إلقاء كلمة ، يبدع في قراءة ، يبدع في فكرة ، يبدع في اكتشاف ، لكن قد لا يبدع أحياناً .

قال بعضهم : « **العبقريَّة تسعٌ وتسعون بالمئة عرق ، وواحد بالمئة إلهام** » ، وهذا الشيء ثابت فكل الأدباء والكتَّاب والشعراء ، حتى كل الأعمال التي تتسم بالإبداع أصحابها يعترفون أنَّه في بعض اللحظات يأتيهم إشراق ، في بعض اللحظات تأتيهم معونة ، في بعض اللحظات يتألَّقون ، ولكنَّ هذه اللحظات لا يملكونها ، تأتيهم أو لا تأتيهم ، ولذلك الذي فعلته اليوم بإشراقةٍ أو بإبداعٍ أو باستثناءٍ لا تملك أن تُعيده وهذا من ضعف الإنسان ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى كلَّ شيءٍ خلقه يعيده مرَّةً ثانية كما ورد في الآية الكريمة :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ .

في اللغة العربيَّة بدأ وابتدى بمعنى واحد . . ولكن لي تعليقٌ على هذا الكلام هو أنَّ كلَّ زيادةٍ في المبنى تدُلُّ على زيادةٍ في المعنى وهذا في أصل اللغة ، فسوف غير السين مع أن الزيادة فقط هي (س) ، فكلمة سأفعل كذا ، غير سوف أفعل كذا ولا شكَّ في ذلك . مثلاً : كتب غير اكتَتَبَ . . فكتب أي كتب رسالة ، واكتتب أي اتَّخذ الكتابةَ مهنةً له .

بدأ الله الخلق . . أي خلقهم وأوجدهم ، فلانٌ لا يبدى : ولا يُعيد أي ليست له حيلة ، لا يفعل شيئاً بادىء ذي بدء ، وليس بإمكانه أن يُعيده ، إذاً ضعيف ولا حيلةَ له ، قاصر .

وفي سورة سبأ قال تعالى :

﴿ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ [سبأ : ٤٩] .

الباطل ضعيف ، الباطل زهوق وقد قال تعالى :

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : ٨١] .

والله عزَّ وجلَّ عندما قال ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ زهوق على وزن فعول أي شديد الزهوق ، وصيغة المبالغة دائماً في اللغة تعني شيئين ، تعني الكمَّ وتعني الكيف ، أي أنَّ أكبر باطل زهوق ، وأكثر باطل زهوق ، فلو كان هناك مليون باطل ، وبالطبع هناك باطل اعتقادي ، وباطل فكري ، وباطل سلوكي ، أي شيء خلاف المنهج فقد قال الله تعالى :

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

فالحق واحد لا يتكرر ، الحقُّ واحد كما أنَّ بين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد فقط ، ولو مررنا مستقيماً آخر لانطبق على الأول ، فبين نقطتين يمرُّ مستقيم واحد ، والحق كذلك واحد ، فالحقُّ لا يتعدد ، أما الباطل فإنه يتعدد . . فبين نقطتين يمرُّ ألف خط منحن ، وألف خط منكسر ، فالباطل يتعدد أما الحقُّ فلا يتعدد .

والآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة أيضاً تؤدي المعنى ذاته قال تعالى :

﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

الظلمات جمع . . والنور مفرد ، فالحقُّ واحد ، فهذا الذي لا يُبدىء ولا يُعيد هو ضعيف ، مفتقر ، ولا حيلة له ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يبدي ويعيد .

الحقيقة كلمة يُبدي . . تشير إلى معنى المبدع . . فالإنسان حينما

يخترع شيئاً لا يخترع من فراغ بل من مثال سابق ، حتى إنَّ الذي اخترع العجلة وكما قال بعضهم لا بدَّ أنَّه رأى شجرة تتدحرج على الأرض فاستنبط من الشجرة العجلة ، والذي اخترع الغوَّاصة رأى السمكة في أعماق البحر ، فعلى مستوى البشر ليس هناك إنسان اخترع شيئاً وأبدع شيئاً إلا على مثالٍ سابق ، حتى أنَّ الكتّاب الخياليين إذا أرادوا أن يصوِّروا قصَّة خياليَّة في العالم الآخر ، يصوِّرون أشخاصاً وهؤلاء الأشخاص على مثالٍ سابق ، فيصوِّرونه له رأس وله يدان وله رجلان وله جذع ، ولكن مع بعض التعديلات .

والمهندسون الذين يصممون الأبنية هناك عدَّة أشكال في ذهنه ، فأول شكل ، والثاني والثالث والرابع والخامس وبعد السادس مثلاً تجده يعيد الشكل الأول ، فالقدرة على إحداث شيء من غير مثال سابق عند الإنسان محدودة للغاية ، فلا بدَّ من مثال سابق ، لكن ربنا عزَّ وجلَّ عندما قال عن نفسه إنَّه هو المبدع أي خلق الكون على غير مثالٍ سابق .

فمثلاً فكرة النبات . . فأنت إذا أردت أن تصنع شيئاً يتكرر فكيف ؟ تقول : نكثِّرهم . لكن ربنا سبحانه وتعالى جعل بداخل الثمرة بذرة ، وهذه البذرة تزرع وتنتج شجرة ، والشجرة تثمر هذه الثمار ، فمبدأ البذور في الكون هذا إبداع وهو على غير مثالٍ سابق ، مبدأ الألوان كذلك . . فهناك ألوان والعين تحتاج إلى نور ، فالله خلق كل شيء على غير مثالٍ سابق .

فمعنى كلمة المبدىء فيها معنى المبدع ، فالإنسان له رأس وجذع وله أطراف ، وله يدان ورجلان ، وهو يرى ويسمع ، وينطق

ويتحرَّك ، وهو ينام ويجوع ويعطش ، من قال إنَّ الإنسان بحاجة إلى أن يشرب ؟ ؟ الله عزَّ وجلَّ . . من خلق هذا الإنسان على أنَّه يحتاج إلى أن يشرب ؟ من خلق الماء ؟ فالإنسان خلق على أن يشرب أوجد الله ماء ، فهو مخلوق كذلك على أن يتنفَّس وهناك هواء .

بل إنَّ الجنين في بطن أمِّه له رئتان وليس بحاجةٍ إليهما إطلاقاً لأنَّ دمه يتجدد عن طريق الأم ، فهذا الأكسجين يأخذه من دم أمِّه عن طريق المشيمة ، فمعنى ذلك أنَّ هناك خالقاً مبدعاً خلق له الرئتين ليستعملهما حينما يولد .

من جعل الكون كُرات ؟ فالكرة شكل هندسي له خصائص ، ومن جعل الكون يتحرَّك ؟ هذه الحركات المغلقة ، من خلق قوى الجاذبيَّة ؟ من خلق النور والظلام ؟ من جعل الحياة أساسها الماء ؟ فهذا كلُّه مبدع على غير مثالٍ سابق .

نحن ألفنا الكون ، ألفنا القوانين ، ألفنا الخصائص ، فإذا أردنا أن نتحرَّك نتحرَّك وفق مثلٍ سابق فقد قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] .

الله عزَّ وجلَّ سمَّى الإنسان الذي يصنع شيئاً سمَّاه مجازاً خالقاً ، وسمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ .

لكن بين خلق الإنسان وخلق الله بونٌ شاسع .

الإنسان يصنع من كلِّ شيءٍ شيئاً ، لكنَّ الله سبحانه وتعالى يصنع كلَّ شيءٍ من لا شيء ، فقال تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ ،

وربُّنا عزَّ وجلَّ سمح لذاته العليَّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال تعالى :

﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾[الأنعام: ٦٢].

الآن هناك حاسوب ، وهذا الحاسوب الذي اخترعه الإنسان شيء مذهل ، يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرفاً في الثانية الواحدة ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ ﴾ . . أي أنَّه ليس هناك زمن فهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] .

فهنا أردت أن أقف قليلاً عند كلمة مبدىء . . أي مبدع ، وأضيف على هذا المعنى معنىً آخر ، وهو أنَّ الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عنده ، هو مبدع الكون بطريقةٍ يستطيع الإنسان بها أن يبدع .

فمثلاً هناك نباتات مقزَّمة فهذا إبداع ، وكذلك شجرة فاكهة ضخمة تقزَّم وتصبح في حجم صغير ، وكثيراً من النباتات الآن مثل الليمون والبرتقال والرمان توضع في أُصص صغيرة جداً فهذا إبداع ، ولكن ربَّنا عزَّ وجلَّ جعل الكون بطريقةٍ إذا أراد الإنسان أن يبدع ، إنه يُبدع فيه .

اللغة مثلاً مؤلَّفةٌ من حروف معدودة ، ولكن من هذه الحروف المعدودة يمكنك أن تبدع كلمات غير محدودة ، فأصبح المبدىء هو المبدع ، والمبدع هو الذي يوجد الشيء على غير مثالٍ سابق ، فليس هناك مثال سابق للمبدع سبحانه .

فالإنسان يمشي وله يدان . . فهذا الشكل شيء رائع جداً ، لكن هناك أكثر من ستة آلاف مليون إنسان ، فلا يوجد إنسان مثل الآخر . . فالله يبدع ، فبصمة الإبهام إبداع ، وقُزحيَّة العين إبداع ، وكيمياء الدم

إبداع ، ونبرة الصوت إبداع ، ورائحة الجلد إبداع ، فالإنسان متميِّز برائحة جلده ، ونبرة صوته ، وقُزحيَّة عينه ، وبصمة إبهامه ينفرد بها ، والآن اكتشف العلماء الزمر النسيجيَّة وهي غير الزمر الدمويَّة ، فأثناء نقل الأعضاء لا بدَّ من حدٍّ أدنى من التوافق النسيجي ، وإلا هذا العضو المزروع يلفظ ولا يقبله الجسم ، فكم زمرة نسيجيَّة مكتشفة إلى الآن ؟ اثنان ونصف مليار زمرة نسيجيَّة أي ليس هناك سوى شخص آخر في هذا العالم يشبهك من حيث الزمرة النسيجيَّة .

فأنت عندك زمرة نسيجيَّة ، وزمرة دمويَّة ، وبصمة إبهام ، وكيمياء دم ، ورائحة جلد ، ونبرة صوت وقُزحيَّة عين تتميّز بها عمّن سواك ، فالله عزَّ وجلَّ اسمه الفرد ، ومن تفضُّله على هذا الإنسان أن جعله فرداً لا مثيل له ، فلك مكانتك عند الله عزَّ وجلَّ .

فالمبدىء . . هو المبدع ، أي خلق خلقاً على غير مثالٍ سابق . . كان الله ولم يكن معه شيء ، ثم خلق الأشياء .

لو قلنا لك : صمم لنا ورقة شجر . فإذا قمت بإجراء المحاولة فسترسم ورقة دائريَّة ، أو ورقة مثلَّثة ، أو مستطيلة ، أو ورقة مسننة ، أو ورقة نحيلة وطويلة ، أو ورقة قصيرة وثخينة ، عدَّة أمثلة ترسمها ، ولكنَّك لو دخلت لحديقة وراقبت فقط أشكال أوراق النباتات لوجدت أعداداً لا تُحصى من أشكال أوراق النباتات ، ودقق نظرك في الأزهار فهي كذلك لا تُحصى .

دخلت إلى أحد المعارض التي خصصت لعرض الفراشات بمصر وعلى ما أذكر فقد ضمّ المعرض أربع قاعات علقت على جدرانها كلُّها فراشات وكل واحدة غير الأخرى ، وكل واحدة أجمل من الثانية شيء

لا يصدَّق ، أشكال متباينة ، وألوان مختلفة فهو سبحانه مبدع على غير مثالٍ سابق .

هذا الكون معرض لأسماء الله الحُسنى ، فكلَّما زدت هذا الكون نظراً وتأمُّلاً تعرَّفت إلى الله أكثر فأكثر ، إنَّ هذا الكون بابٌ واسع تدخل منه على الله ، وطريقٌ قصير تصل به إليه .

فالمعنى الأول . . المبدىء . . المبدع الذي خلق فأبدع على غير مثالٍ سابق ، أما الإنسان . . فقد قرأت موسوعة عن الطيور ففي المقدمة كتب المؤلِّف قائلاً : إنَّ أرقى طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا ترقى إلى مستوى الطائر . فأحد أنواع الطيور يطير ستَّة وثمانين ساعة طيران بلا توقُّف ، ونحن إذا طرنا بطائرة سبع ساعات فوق مياه المحيط الأطلسي نقول : هذا شيء يفوق عجائب الدنيا السبع .

وبعض الطيور تقطع سبعة عشر ألف كيلومتر ولا تضلُّ الطريق بلا بوصلة ودون الاستعانة بمراكز البث المنتشرة في أنحاء المعمورة ، فالطائرة تعرف موقعها من خلال هذه المراكز وبالاتصال المستمر مع هذه المحطات الأرضيَّة ، ويعرف منها حوادث الطائرات بالساعة والدقيقة ومكان الوقوع إذا انقطع اتصال الطائرة بالأرض ، ولكن هذا الطائر الذي يطير من شمال الكرة الأرضيَّة إلى جنوبها ، من شمال بريطانيا إلى جنوب إفريقية ، وحينما يعود لو أنَّه أخطأ في زاوية العودة بمقدار درجة واحدة لهبط في هولندا ، ولو أخطأ زاوية أُخرى لجاء في ألمانيا .

والأغرب من ذلك هذه الطيور التي تبني أعشاشها . . تُعشش في البيوت ، والتي تهاجر إلى الجنوب وتعود ، كطائر مثلاً وصل إلى

جنوب إفريقية وسيعود ، وهو مثلاً في دمشق في بيت من بيوت الصالحيّة ، لو أخطأ نحو اليسار درجة واحدة لجاء بمصر ، ولو أخطأ نحو اليمين درجة لجاء بالعراق . . لكنه إذا عاد فإنّه يصل إلى عُشِّه الذي بناه في دمشق ، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي .

كلَّما تأمَّلت في خلق السموات والأرض ذابت نفسك خشوعاً لله عزَّ وجلَّ وتعظيماً له .

وقال بعضهم : « **المبدىء هو الذي ابتدأ العباد بالفيض والمدد ، وهو نِعم السند** » .

أحياناً تُهدى هديَّة ابتداءً فتنتبه فتردُّ عليها ، ولكن لمن الفضل ؟ الفضل لمن بدأ . . لأنّ ردَّ الفعل أقلُّ من الفعل . . فربنا عزَّ وجلَّ أنعم عليك بنعمة الوجود ، فأنت موجود ، وبدأ فضله عليك بنعمة الإمداد ونعمة والهُدى والرشاد ، وهو قد بدأك بالفضل فقد قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

لم يقل : يحبونه ويحبُّهم بل قال : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ . . حينما خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً مذكوراً بدأه بالفضل وقد قال تعالى :

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن : ٦٠] .

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كلِّ ما قدَّمت مسؤولُ

أيضاً المبدىء . . المُظهر . قال : أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود .

فالمعنى الأول للمبدىء.. هو المبدع . أي خلق على غير مثالٍ سابق .

المعنى الثاني للمبدىء.. هو الذي بدأك بالإحسان فأوجدك .

المعنى الثالث.. هو الذي أظهرك ، فقد كنت في حيِّز العدم أي عدماً فأظهرك .

وقال بعض العارفين بالله : « المبدي هو **الذي يقذف في قلب عبده النور فيشرق** » ، أي كان إنساناً خاملاً تافهاً بعيداً ، ضائعاً شارداً ضالاً ، فلمَّا ألقى في قلبه النور انتبه وصار شيئاً مذكوراً ، فالله عزَّ وجلَّ يرفع الإنسان ويسمو به ، ألم يقل في كتابه الكريم :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح : ١-٤] .

كان إنساناً خاملاً.. فأحياناً تجلس مع إنسان تجد همومه سخيفة جداً ، وأحياناً أخرى تجالس إنساناً آخر فتدهش ، فهناك أشخاص اتصالهم بالله ومعرفتهم باليوم الآخر وسعيهم إلى الدار الآخرة وبذلهم وتضحياتهم جعلت من شخصيَّتهم شخصيَّاتٍ فذَّة .

فهذا الصحابي الجليل سيِّدنا ربيعة مثَل ناطق ، فعندما خدم سيِّدنا رسول الله ﷺ وقد انتهى وقت الخدمة فقد أذَّن العشاء وصلَّى النبي ﷺ وأوى إلىٰ فراشه ، ولكنَّ ربيعة لم يستطعْ أن يغادر بيت النبي .

والحقيقة المؤمن كما في الحديث الصحيح : « **أولياءُ الله الذين إذا رؤوا ذكر الله** » فهناك سر ، فهذا الاتصال بالله عزَّ وجلَّ ، هذا النور الذي يسري إلى قلب المؤمن يجعله كالكوكب الدُرِّيِّ مشعاً من

حوله ، فسبحان الله المؤمن له هيبته وشخصيَّته ووقاره ، وله الأنوار من حوله ، فكلُّ إنسان التقى بمؤمن صادق يسري في كيانه ما يشبه التيار الكهربائي ، ويشعر برعشة ، ووجل .

فقد دخل على النبي الكريم رجل فأصابته رِعدة ، فقال له : « **هوِّن عليك إنما أنا ابن امرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكَّة** » .

الظاهر بيبرس وهو بطل من الأبطال ردَّ التتار ومع ذلك قال : والله ما استقرَّ مُلكي حتى مات العزُّ بن عبد السلام ، والعزُّ كان أحد العلماء في عصره ، وقد كان له من قوَّة الشخصيَّة والهيبة وقوَّة التأثير ما دعا الظاهر بيبرس إلىٰ أن يقول هذا القول .

روي أن الحجاج بني داراً بواسط وأحضر الحسن ليراها فلما دخلها قال : الحمد لله إن الملوك ليرون لأنفسهم عزاً وإنا لترى فيهم كل يوم عبراً يعمد أحدهم إلى قصر فيشيده وإلى فرش فينجده وإلى ملابس ومراكب فيحسنها ثم يحف به ذباب طمع وفراش نار وأصحاب سوء فيقول : انظروا ما صنعت فقد رأينا أيها المغرور فكان ماذا يا أفسق الفاسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك وأما أهل الأرض فقد لعنوك بنيت دار الفناء وخرجت دار البقاء وغررت في دار الغرور لتذل في دار الحبور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهده على العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه .

وبلغ الحجاج ما قال فاشتد غضبه وجمع أهل الشام فقال يا أهل الشام أيشتمني عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تنكرون ؟ ثم أمر بإحضاره وهو يحرك شفتيه بما لم يسمع حتى دخل على الحجاج فقال يا أبا سعيد أما كان لإمارتي عليك حق حين قلت ما قلت ؟

فقال : يرحمك الله أيها الأمير إن من خوَّفك حتى تبلغ أمنك أرفق بك وأحب فيك ممن أمنك حتى تبلغ الخوف وما أردت الذي سبق إلى وهمك والأمران بيدك العفو والعقوبة فافعل الأولي بك وعلى الله فتوكل وهو حسبنا ونعم الوكيل فاستحيا الحجاج منه واعتذر إليه وأكرمه وحياه .

وفي رواية أخرى : فلما دخل قال له الحجاج ها هنا فأجلسه قريباً منه وقال : ما تقول في علي وعثمان قال أقول قول من هو خير مني عند من هو شر منك ، قال فرعون لموسى : (فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى) علمُ علي وعثمان عند الله .

قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد! ودعا بغالية وعطر بها لحيته فلما خرج تبعه الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين دخلت عليه قال قلت :

يا عدتي عند كربتي! ويا صاحبي عند شدتي! ويا ولي نعمتي! ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب! ارزقني مودته واصرف عني أداه ففعل ربي عز وجل .

فالمؤمن له هيبةٌ كبيرةٌ جداً من اتصاله بالله .

وقد قيل للحسن البصري : بِمَ نِلت هذا المقام ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي .

فعندما يكون العالم مريض النفس يستغني الناس عن علمه ويحتاج إليهم هو لدنياه . . تسقطُ مكانته ، وتسقط قيمته . . فما نال الحسن البصري هذا المقام إلا باستغنائه عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمه .

فمن بعض معاني كلمة مُبدي أنَّ الله يُلقي على هذا المؤمن هيبةً ، ويلقي في قلبه نوراً ، مما يجعله كريماً عزيزاً .

أما اسم المعيد.. ففي اللغة : العَوْدُ هو الرجوع ، كالعودة.. ومن كلمات السلف الصالح اللهمَّ! ارزقنا إلى بيتك معاداً وعودةً ، والعَوْدُ : هو الرجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه ، والمُعيدُ من الرجال العالم بالأمور . ففي الجامعة عندنا مصطلح اسمه المُعيد ، وقد كان الطالب المتفوِّق يُعيد الدرس على زملائه ، فلتفوّقه استوعب الدرس ، فإذا كان هناك طالب ضعيف فيستمع من المعيد إلى الدرس ، وهو يُعيد الدرس على قُرنائه ، فالمعيد هو العالم بالأمور .

والعائدة هي المعروف.. اللهمَّ لا تحرمنا عوائد فضلك ، فالعائد هو المعروف أي يعود نفعه على من فعله ، فإذا فعل إنسان معروفاً فيعود عليه الخير.. فالعود هو المعروف لأنَّ الإنسان إذا فعل المعروف عاد عليه الخير ، والعائدة هي المعروف والصلة .

والمعاد.. الآخرة : « **اللهمَّ أصلح لي ديني الذي هو عصمةُ أمري ، وأصلح لي دُنياي التي فيها معاشي ، وأصلح لي آخرتي التي فيها معادي** » .

فالمُعيد هو الذي يرجع بعد أن انصرف عن الشيء.. والمُعيد هو العالم بالأمور ، والعائدة المعروف لأنَّه يعود على صاحبه بالخير ، والمعاد هو الدار الآخرة ، فقد قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [القصص : ٨٥] .

﴿ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ﴾ أي سوف يرجع بك أو يعيدك ، وقد قال

تعالى : ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ ﴾ [طه : ٥٥] .

أما المُعيدُ في صفة الله تعالى فهو كما قيل : « **هو الذي يُعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات** » .

كلُّ الناس هلكى ، كلُّ من عليها فان ، كلُّ شيء هالك إلا وجهه ، فالإنسان مهما علا لابدَّ من أن يعود إلى التراب ، لا بدَّ من دخول القبر ، الليل مهما طال فلا بدَّ من طلوع الفجر ، والعمرُ مهما طال فلا بدَّ من نزول القبر .

فالمُعيد هو الذي يُعيدنا إلى الموت بعد أن أحيانا فالموت نهاية كلّ حي ، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل ، هذه هي النهاية والمصير .

قال العلماء : « **ثم يُعيدهم بعد الموت إلى الحياة** » : ﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ ، فهو ينقُلك من الحياة إلى الموت ، ومن الموت إلى الحياة ، لو كان الموت نهاية كلّ حي وهو فناء وانتهى أمر الإنسان بعده لكانت القضيَّة إذاً سهلة جداً ، ولكن الموت بداية حياة فقد قال تعالى :

﴿ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴾ [الفجر : ٢٤-٢٦] .

قال العلماء أيضاً : المُعيد هو الذي يُعيد الخلق للحساب . . فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾ [الغاشية : ٢٥-٢٦] .

هناك عودة ، وهناك سؤال ، ومحاسبة ، ودقَّة بالغة وعرض للأعمال ، والمعيد هو الذي يُجازي كلَّ مخلوقٍ بعمله وقوله ، ويُحاسبه على نعمه وطوله .

ورأي الإمام الرازي في هذا الموضوع « **أنَّ المعيد هو الذي يُعيدُ الأشياء بأعيانها** » ، فهذا الجسم الذي فني إلى ذرَّات ، فالذرَّات نفسها تجتمع ويُعاد خلقها من جديد ، فلو أنَّ الإنسان أُحرق كما في الهند وأُلقي رماده في الآفاق ، فهذه الذرَّات يُعيدها الله سبحانه وتعالى ، لو أنَّه أُلقي في البحر ، أو لو أنه احترق في الجو ، فذرَّات الإنسان التي خلقها الله يُعيدها هي هي ، وقد استنبط الإمام الرازي هذا من قوله تعالى :

﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٩] .

فالذرَّات نفسها يُعيد خلقها . . وقد قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١] .

معنى ذلك الجلد نفس تشهد على صاحبها ﴿ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ ، فإذا ارتكب الإنسان معاصي بأعضائه ، فهذه الأعضاء نفسها تجتمع ويُعاد خلق الإنسان منها ثانيةً وتشهد عليه .

يروى أنَّ سيِّدنا داود كان يبكي فأوحى الله تعالى إليه قال : لم تبكي يا داود ؟! إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمَّنتك ، وإن كان رجاء الجنَّة فقد أعطيتك ، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك ، فزاد داود بالبكاء وقال : إنما أبكي لما فاتني من صفاء ذلك الوقت الذي ولّى ، فارده عليّ . فقال له ربُّه جلَّ جلاله : هيهات يا داود لا سبيل إلى ردِّ ذلك الوقت .

فالوقت لا يعود . . الدنيا ساعة اجعلها طاعة ، فمستحيل أن

تستعيد الوقت ، فالوقت إذا مضى لا يستعاد ، لذلك ما مضى فات والمؤمَّل غيب ، ولك الساعة التي أنت فيها .

من أدب المؤمن مع اسم المُعيد أن يُكثر من ترداد هذا الاسم كي يتذكَّر العودة إلى الله عزَّ وجلَّ ، فهناك عودة إلى الله .

أحد الأشخاص اتَّفق مع شخص آخر على أن يقرضه ثلاثمئة ألف ويُسجِّل له بستاناً جميلاً جداً كرهن ، فلما لم يستطع المستقرِض أن يرُدَّ القرض ، قال له الآخر : كلُّ إنسان معه حقُّه ، وكان ثمن البستان مليوناً . فصاحب هذا البستان تألَّم ألماً شديداً لدرجة أنَّه أصيب بأزمة قلبيَّة وشارف على الموت ، فأوصى ابنه قائلاً : يا بني إنِّي إن مِت سِرْ بالجنازة أمام هذا الذي اغتصب مني البستان وأوقف الجنازة أمام دكَّانه ، وادخل إليه وأعطه هذه الرسالة ، وبعد موت الرجل وكان بيته بطرف المدينة فانتقلت الجنازة إلى الطرف الآخر وسارت إلى جانب دُكَّان المغتصب ، وأوقف ابنه الجنازة أمام الناس ودخل إلى هذا المغتصب وقال : هذه الرسالة من هذا الميِّت ، قبل أن يموت كتبها لك . ففتحها فقرأ ما كتبه المتوفّى فيها قائلاً : إنني ذاهبٌ إلى الله ، فإذا كنت بطلاً فلا تأتِ إلينا ، سوف أُقاضيك هناك .

إذاً معنى المُعيد أننا لا بدَّ من أن نعود إلى الله وسوف نُحاسب ، لذلك الغنى والفقر بعد العرض على الله ﴿ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ . وقد قال تعالى :

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة : ٧ـ ٨] .

وللمزيد من البيان . . . المُبدىء ، أقول : إنّ الإنسان إذا عرف أن

بدايته من ماءٍ مهين ، وأنّه خرج من عورةٍ ودخل في عورة ثم خرج من عورة ، هذه هي البداية ، ثم بعد هذا الخلق سوف يُعيده الله إلى الموت ، وبعد الموت يُعيده الله إلى الحياة ، فالبداية أي أصل خلق الإنسان الأول من تراب ، وأصل خلقه بالذّات من ماء مهين ، والنهاية موت وبعد الموت هناك حياة أبديّة ، فأدب المؤمن مع هذين الاسمين المبدىء المعيد أن يذكر بدايته ونهايته .

لذلك . . طوبى لمن ذكر المبُتدى والمنتهى . . ذكر المبتدى أي أنَّه كان نقطة من ماء مهين ثم صار طفلاً ضعيفاً ثم كبر واشتدَّ عوده ثم بدأ يقول : أنا وأنا ، ثم يعود إلى ما كان عليه من الضعف والجهل ، ثم يطويه الردى ثم يُعيده الله تارةً أُخرى ليحاسبه على كلِّ أعماله . . فالله يبدأ الخلق ثم يعيده لتجزى كلُّ نفسٍ بما تسعى فقد قال تعالى :

﴿ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [الروم : ١١] .

﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ [طه : ١٥] .

فالله عزَّ وجلَّ هو المبدىء والمعيد ، بدأك بالإحسان إليك حيًّا وأعادك إلى ما كنت عليه من العدم عند الموت ، ثم أعادك من العدم إلى الحياة لتلقى جزاء عملك .

* * *